# الفصل الأول

## المقاربة التداولية في اللسانيات الحديثة وتحليل الخطاب

### توطئة

لعل من أهم المناهج اللسانية المعاصرة التي استأثرت باهتمام الدارسين في الغرب، وكان لها وقع علمي، وصدى منهجي متعدد الآثار في مقاربة أشكال الخطاب بعامة والخطاب الأدبي بخاصة المنهج التداولي بمداخله المختلفة، فقد ظهرت دراسات نظرية مهمة، وأخرى تطبيقية حاولت استثمار أهم أدواته الإجرائية في دراسة هندسة القبول في الخطاب وأغراضه المتشكلة ضمن صيرورة البنية والدلالة والتلقي.

ولنا أن نذكر في هذا السياق ما قدمه ج. أوستن وج. سيريل في منتصف القرن الماضي بالإضافة إلى التوجهات التداولية ذات الطابع الفلسفي التي أسس لها **كتلوب فريج** و**إدولف كارنب** و**لودفيج فتجنشتين** وغيرهم ممن أسهم في تأسيس النظريات التداولية المعاصرة ضمن نظرية أفعال الكلام (الأعمال اللغوية) ونظرية المحادثة والتعاون الحواري ودراسة الافتراضات المسبقة في الخطابات ذات المنزع الحواري والجدلي، كما قامت نظريات المحاجّة عند **بريلمان** و**تتيكاه** و**ماير** و**دي كرو** و**غ. مانجنو** و م. آدام على مقاربة الخطاب اللساني في أطره السياقية والتواصلية في ضوء قيمته البرهانية والحجاجية.

## ١ – اللغة والبعد التداولي

لم يعد مجديا إلى حد ما تعريف اللسانيات بأنها دراسة اللغة لذاتها ولأجل ذاتها – كما زعم **فردينان دي سوسير** في بدايات القرن العشرين – بل أصبح ضروريا تعريف الحدث الكلامي باعتباره الصورة الفعلية للغة المنجزة في التواصل الاجتماعي موضوعا رئيسا ومركزيا في نظرية التواصل، تتوجه له أنظار الباحثين مسلطين عليه مقارباتهم المنهجية الرامية إلى تحليله واستقطار المعنى منه في السياقات المختلفة. وذلك في سياق العناية بالبعد الاستعمالي للنظام اللساني في صلب التخاطب والتفاعل الاجتماعي.

لقد كان للبعد الاتصالي التخاطبي أثره الرئيس في توجيه الدراسة اللسانية بخاصة في الخمسينات من القرن العشرين إلى دراسة بنية الخطاب تحت ضلال البنوية، وما تفرع عنها لاحقا من مناهج ركزت في معظمها على الجانب الشكلي الذي يتحكم أساسا في المكونات الدلالية والتداولية، وشكّل ما نشأ عن هذه الحركة النصية ميلاد علم النص وتحليل الخطاب الأدبي.

ثم انفتح هذا العلم الجديد في فرنسا وألمانيا على أنواع النصوص والخطابات المختلفة على يد **جوليا كرستيفا** و**رولان بارت** و**تودوروف** و**ايكو** و**روبيرت دي بوجراند** و**دليسلر** و**بنفنيست** و**فرانسواز أرمنكو**[1] وغيرهم، وكانت مرحلة الثمانيات مرحلة نضج منهجي لعلم تحليل الخطاب بشتى اهتماماته التي تجاوزت الشعر والسرد إلى

(١) أرمنكو، فرانسواز خريجة المدرسة العليا للأساتذة بسيفر، مبرزة جامعية، من أعمالها المقاربة التداولية، وهو كتاب تأسيسي تعريفي في التداولية، ترجمه إلى العربية الناقد المغربي سعيد علوش إيمانا منه بضرورة توسيع الأفق النقدي العربي، ليتجاوز مأزق البنيوية الشكلاني الذي يتجاهل المعطى السياقي بمصادره التاريخية والنفسية والاجتماعية في صياغة النص شكلا ومضمونا وأغراضا في التداول اللساني اليومي.

المحـادثة والإشهار والحـجاج والمسرح والخطابة السياسية وغيرها من صور التعامل الشفوي والكتابي الجديدة.

كما تشكل في هذا الحيز المعـرفي خطاب جديد يؤرخ لخطاب ما بعد الحداثة هو خـطاب التداوليات الذي استهدف معرفيا البلاغة وعلم النفس وعلم الاجتماع والمنطق والأدب واللسانيات، وحقول معرفية أخرى تتقاطع جميعا في دراسة مكنون القول، ومجريات التلفظ بوصفه فعلا لغويا متجذرا في السياق الاجتماعي الذي يؤطر حركة الأفراد.

وفي هذا السياق يرى **رورتي** أن فلسفة ما بعد الحداثة انفتحت اليوم على الحوار والتواصل بعدما أخفق العقل الماهوي في بناء علاقات بشرية مرنة ومفتوحة[٢]، أما في عالمنا العربي فقد ظل التفكير اللغوي في أكثر البلاد متأثرا بمنهج القدماء في دراسة اللغة، غير آبه للتطور الكوبرنيقي الذي أحدثه الفكر اللساني الحديث، وما يشاهد في بعـض الأنحاء اليوم لا يشكل لدى المهتمين باللسانيات إلا بدايـة بسيطة لتلقي هذا العـلم في صـورة أبجديات تشعر الباحث بزهد في العلم وعدم حاجة إليه بالرغم من تتالي الجهود النظرية والتطبيقية الرامية إلى تأكيد حاجة التنمية اللغوية العربية إلى علوم اللسان الحديثة.

ولعل قلة الدراسات العربية في المجالين النظري والتطبيقي المعنية بتحليل الخطاب فيما اطلع عليه الباحث بخاصة المعتمدة على المنهج اللساني الحديث كان حافزا رئيسا للتوجه نحو هذا الموضوع الذي يسلط الضوء على نماذج التلقي العربية

---

(٢) محمد شوقي الزين، **تأويلات وتفكيكات في الفكر العربي المعاصر**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط٢، سنة ٢٠٠٠، ص ١٦٨.

لنظريات تحليل الخطاب بخاصة تلك التي ركزت على التحليل التداولي للنصوص الأدبية وغيرها.

وعلى الرغم من تواصل الخطاب العربي المعاصر مع نظريات النقد الأدبي في الغـرب تواصلا حميما تجلى في محـاولات الإفادة من البنيويات المختلفة والسيميائيات (Simiotice/Simiotique) والأسلوبيات (Stylistique/Stylistics) في مجالي النقد النظري والتطبيقي، فإن التداولية باتجاهاتها المتعددة ظلت مهمشة إلى حد ما، وغير فاعلة في العملية النقدية العربية[٣]، مما قلّل من فرص العثور على دراسات نقدية عربية أصيلة تمتح من المنهج التداولي في تحليل الخطاب الأدبي.

لعل مسعى توصيفيا لهذه الجهود على قلتها وتناثرها سيسهم لا محالة في استيعاب مناهج التحليل النصي الحديثة التي حاولت ولا تزال معالجة الخـطاب الإنساني التي يشكل الخطاب العربي رافدا من روافده، كما توجه أنـظار الباحثين القادمين إلى هذا المجال الحيوي الذي ما زالت حماه محظورة لما تنتهك بحثا معمقا في أكثر البلاد.

إن محاولة تتبع ما كتب في هذا المجال هو إسهام متواضع في تشكيل أرضية حوار مع المناهج الحديثة في تحليل الخطاب تحليلا تداوليا، لا تزعم تقديمها حلولا لمشكلات التطبيق التي تشير إلى وجود خلل منهجي في التلقي والتمثل لدى اللسانيين العرب، وكذا النقاد الذي جروا وراء بعض المقاربات اللسانية في ميدان التداوليات بعامة والتداوليات الحجاجية بخاصة. غير إننا نعترف بصعوبة هذا المسلك، وتشعبه إذ يأخذ القارئ إلى تتبع جهود فردية متنوعة في البلاد العربية يحاكي بعضها البعض في الموضوع والآليات والأهـداف، ناهيك عن بعـض الجهود الجماعية التي تظهر في

(٣) محمد العبد، **"تعديل القـوة الإنجازية، دراسة في التحليل التداولي للخـطاب"**، مجـلة فصول، ص ١٣٤.

المؤتمرات والندوات العلمية بخاصة تلك التي تعقد في الجامعات العربية في المغرب العربي وبعض بلدان المشرق.

في هذا السياق يمكن أن ننوه بأعمال مؤتمر علم النص الذي عقد بجامعة الجزائر المركزية في يناير ٢٠٠٦، الذي دار حول نظريات التداولية الغربية واتجاهاتها وعلاقتها بمناهج التحليل النصي مثل السيميائية والسرديات، وجدواها المنهجية في تحليل أنواع الخطاب المختلفة، وفي صدارة ذلك الخطاب الحجاجي والخطاب القانوني باعتباره صورة حديثة للمحاجة، ناهيك عن دراسة سبل الانتفاع من المنهج التداولي في تحليل الشعر والسيرة الشعبية والنص الروائي بشكل خاص(٤).

إن هذه الأعمال على أهميتها تخندقت في الغالب في خندق التعريف وتبسيط الرؤية مما يمكن عده نموذجا أيضا للكتابة اللسانية التمهيدية، عدا محاولات تطبيقية سعت على صعيدين مختلفين إلى ربط التراث بالحداثة في أهم مقولات الفكر التداولي من ناحية، ومحاولة تحليل نماذج نصية تحليلا تداوليا من ناحية أخرى، وهذا المنحى بالذات بات قليلا ونادرا في كثير من الدراسات المتصدية للنظريات التداولية وفي مقدمتها نظرية الحجاج في منجزنا اللساني والنقدي الحديث(٥).

(٤) يمكن مراجعة أعمال هذا المؤتمر في مجلة اللغة والأدب، مجلة علمية محكمة تصدر عن قسم اللغة العربية بجامعة الجزائر، عدد١٧، سنة ٢٠٠٦.

(٥) من تلك الدراسات تداوليات الخطاب القانوني لعبد الحق بلعابد، ووجهة الخطاب في سورة المؤمنون لمفتاح بن عروس، والضوابط التداولية للخطاب الرسائلي في كتاب الإمتاع والمؤانسة لكميلة وتيكي، وجماليات الخطاب السردي بحث في الرؤية السردية – حديث الحس من حدث أبو هريرة قال للمسعدي أنموذجا للباحث وليد بوعديلة.

والحقيقة إن الالتفات إلى المقـاربة التداولية للخطاب الأدبي بات أمرا مطلوبـا بل ضروريا لما له من أهمية في استكشاف خبايا النص، وأغراضه التبليغية، وما يحيل إليه من مرجعيات اجتماعية وفلسفية وإيديولوجية، ورصيد ثقافي. إن المجتمع يتلقف يوميا كمّا هائلا مـن النصوص والخطابات عـبر الوسائل السمعية البصرية المتعددة تغزو ثقافته وتزاحم وجوده الفكري والحضاري، وأفراده يفتقرون إلى أبسـط أدوات الفهم والتحليل المنهجي بـل لا يستطيعون التمييز بين أنواعها وأشكالها ناهيك عن غاياتها ومراميها. وهو ما يظهر جليا في البرامج التلفزية والخطب السياسية والحزبية، وما تبثه القنوات من كم هائـل من نصوص الدعاية والإشهار، وما يعرض على الطرقات والمباني من لافتات وكتابات مختلفة تجتهد وفق استراتيجيات مصممة سلفا في جلب انتباه الناس، والتأثير في مشاعرهم، وتوجيه سلوكهم وإقناعهم بجملة من المفاهيم الدينية والفلسفية والقيم الاجتماعية التي ترهن وجودهم وتضمن تاريخهم.

وفي إطار العلاقة بين أنواع الخطابات المختلفة من ناحية والسياق من ناحية أخـرى تتنزل الأنواع الأدبية من قصة وروايـة ومسرحية وشعر ومحـادثة ومناظرة وأحاديث تلفزية وغيرها، وهـذه الأنـواع من حيث هـي أشكال تعبيرية لا يمكن إدراك دلالة الخطاب فيها ومراميها النفسية والاجتماعية والسياسية والفنية إلا بالعودة إليها، وأخذها بعين الاعتبار.

كما تبدو مسألة الأنواع الأدبية مسألة حاسمة، فبمجرد أن يعرف المتلقي النوع الذي ينتمي إليه النص يستطيع أن يؤوله، ويتصرف بإزائـه تصرفا مناسبا، لكن في حالة عـدم تعرفه على نوع النص يمكن أن يؤدي ذلك إلى شلل في عملية الفهم، وفي النـص الأدبي بالذات تظهر مسألة مهمة عالجتها التداولية بعناية هي مسألة المضمر أو

الضمني (l inmplicite)[٦]، مما يفتح المجال للبحث في التداولية الأدبية التي تعود نشأتها إلى فكرة المبدأ الحواري التي جاء بها الناقد الروسي **ميخائيل باختين**.

بل **إن تودوروف** يعـده أكـبر منظري الأدب في القـرن العشرين ومؤسس التداولية الحديثة في ضوء ما قرره من رؤى وتصورات تعلي من التفكير التداولي في ميدان تأويل النصوص الأدبية مثل: السياق الاجتماعي والتاريخي، أو ما يسميه بسياق التلفظ، والتفاعل بين المتخاطبين، وقيم الملفوظ، والتنبير أو النبرة فهي موجه لما هو اجتماعي في الخـطاب بعامة والأدبي منه بخاصة، خصوصا أنّ اللغة في استعمال المتخاطبين وفي النص الإبداعي في الواقع مشتتة ممزوجة بنوايا المستخدمين، واللغة بالنسبة إلى الوعي الذي يعيش داخلها ليست نظاما مجردا معياريا من الأشكال، بل هي مواقف من العالم، وكل كلمة فيها تحمل طابع المهنة والنوع والاتجاه والنزعة والعمل والشخص والجيل والسن[٧].

كما أفادت التداولية الأدبية من جملة المبادئ السيميولوجية التي ورثت بدورها مبادئ **بروب** في تحليل الحكاية الشعبية على يد **غريماس** و**بيريموند** وغيرهما، ثم ما لبث هـذا التوجه السيميولوجي أن أسفر عن منظومة متسقة من الإجراءات المنهجية التي وجهت نحو تداولية الخطاب الأدبي مستثمرة تلك القواعد التحليلية السيميولوجية المعنية بالكشف عن الأبنية الوظيفية ضمن حركة أشمل مثلها علم تحليل الخطاب[٨].

---

(٦) عبد القادر بوزيدة، **ملاحظات ومقارنة بين بعض الاتجاهات التداولية باختين ومانقنو نموذجا**، مجلة اللغة والأدب، جامعة الجزائر، عدد ١٧، ص ٤٧.

(٧) المرجع نفسه، ص ٤٥.

(٨) صلاح فضل، **بلاغة الخطاب وعلم النص**، ص ١٠٥.

أن التحليل السيميولوجي ذاته أفاد لاحقا من نظرية أفعال الكلام ( Actes de Parole) بخاصة في سيمياء المسرح والدراما، فقد انتهى رواد هـذا الاتجـاه إلى أن قـدرة اللغة الاجتماعية والتواصلية والأدائـية هي التي تسيطر في الدراما التي تنشأ خطابا كنائيا يتألف مـن نظام مـن الأقـوال والأفـعال[٩]، وفي كتابه النظرية الأدبية يواصل **جونتان كولر** إبراز أهمية نظرية الأفعال اللغوية/ الكلامية في تحليل المنطوقات الأدبية، بالإضافة إلى تلك العـلاقة الشبيهة بين الأدائية واللغة الأدبية، مما يمكن من تصور الأدب فعلا[١٠].

لقد سجلت تداولية الفعل اللغوي حضورا مهما في نظرية الاستقبال، وأعمال مدرسة **كونستانس** الألمانية، بل يمكن الحديث عن تداولية تأويلية عند **ياوس** و**إيزر**[١١].

في هذا السياق المنهجي لم يعد الأدب بنية شكلية مغلقة، معزولة عن سياقها مما أتاح المجال إلى عودة تلك العلاقة القديمة بين الشعر والخطابة، فالدراسة التداولية للأدب في ضوء هذه العلاقة الجديدة تقوم على اكتشاف الأبعاد الغرضية فيه من خلال دراسة الإيحاءات والإفتراضات المسبقة والقيم الحجاجية والإشهارية فيه مع ربطها بالعالم الخارجي فيما يتصل بعالم الكاتب وإيديولوجيته وسلطة القارئ ورغباته، وكذا فعالية القوى الثقافية والاجتماعية وأنظمة النشر والتوزيع وغيرها[١٢].

---

(٩) محمد العبد، **تعديل القوة الإنجازية**، ص١٣٥.

(١٠) جونتان، كولر، **مدخل إلى النظرية الأدبية**، ترجمة مصطفى بيومي عبد السلام، المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، سنة ٢٠٠٣، ص ١٣٥.

(١١) محمد العبد، **تعديل القوة الإنجازية**، ص١٣٦.

(١٢) ميجان الرويلي وسعد البازعي، **دليل الناقد الأدبي**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، سنة ١٩٩٢، ص ١٠٢ و١٠٣.

openkanal.com

في مقابل النص الأدبي – مثلا – يمكن أن يظهر النص الحجاجي الذي تترسخ فيه الظاهرة الحوارية على الصعيدين الفكري والتواصلي[١٣] مشترطا جملة من القواعد لبنائه وتقبله، ومن ثم تأويل مقاصده، وفي هذا السياق يقوم الفعل الحجاجي – كما يؤكد **مارك أوجنو** – بتقديم الحجج من الشك إلى المحتمل من أجل اختزال الشك والتغلب على مقاومات التردد، وتذويب المسبقات الفكرية الجاهزة[١٤].

لقد طفقت الدراسات في ميدان تحليل الخطاب تهتم بالجوانب الخطابية والبلاغية التي توجه النشاط الاجتماعي للأفراد الذين يظلون في تواصل مستمر وفعال مع المحيط بمؤثراته ومحفزاته وإكراهاته مما كان له كبير الأثر في عودة البلاغة بقوة إلى مجال التواصل، ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن التداولية الحديثة في صميم نظريتها بلاغة للخطاب من حيث كونها طرائق وآليات لفهم القول وأساليب صياغته في المقامات التخاطبية المختلفة، وهذا ما عبر عنه **ليتش** صراحة بعدّه التداولية بلاغة في صميمها[١٥].

إن القارئ العربي لم يخرج بعد بسبب تخلفه الفكري من طريقة الفهم التسطيحية التي حصرت البلاغة في القواعد المعيارية والأمثلة الجزئية، ودليل ذلك انهماك الجامعات العربية في تدريس أصول البلاغة، وإعادة كتابة ما قدمه **أحمد أمين**

---

(١٣) حبيب عراب، **الاستدلال الحجاجي**، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والآداب والفنون، الكويت ن مجلد ٣٠، يوليو –سبتمبر، ٢٠٠١، ص ١٠٢.

(١٤) عبد السلام عشير، **عندما نتواصل نغير، مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج**، إفريقيا الشرق، ط١، سنة ٢٠٠٦، ص ١٣.

(١٥) أوليفي روبول، **"هل يمكن أن يوجد حجاج غير بلاغي"**، ترجمة محمد العمري، مجلة علامات في النقد، جدة، عدد٢٢، مجلد ٦، ديسمبر سنة ١٩٩٦، ص ٧٦ و٧٧.

وعلي **الجارم** نقلا عن عصر الضعف دون فتح لآفاق الموروث على المناهج الغربية التي ربطت البلاغة باللسانيات ونظرية التواصل والعلوم النفسية والاجتماعية.

يظهر مسح سريع لأهم ما كتب في عصرنا في مصر والشام والخليج العربي هذه النزعة التراثية التي خيمت على البحث البلاغي، وأقسام اللغة العربية في أغلب البلاد تدرج البلاغة ضمن العلوم الأدبية ملحقة إياها بالنقد الأدبي وفي هذا المنحى مزالق كثيرة، وخروج عن مسلكها الاتصالي الذي ترومه منذ عهد **أرسطو** و**الرواقيين**، مرورا **بالجاحظ** و**الجرجاني** و**السكاكي** ووصولا بها إلى عصر اللسانيات وتحليل الخطاب.

إن لمن أولى المساعي التي حرصت على تقديم المنهج التداولي إلى القارئ العربي منذ فترة مبكرة أداة لقراءة التراث، في مسعى نقدي تقويمي هو الفيلسوف المغربي **طه عبدالرحمن** الذي يعود إليه السبق في تقديم المقابل العربي **"تداولية"** للمصطلح الأجنبي (Pragmatics/Pragmatique)، ولعلي أعده من القلائل في الوطن العربي ممن شغل بدرس التداوليات نظرية وتطبيقا، وذلك من خلال مؤلفاته الكثيرة في مجالات المنطق وفلسفة اللغة ونقد التراث الكلامي والفلسفي.

لقد نحا **طه عبدالرحمن** في تحليل ظاهرة التخاطب منحى علميا شاملا في الكشف عن آليتها والقواعد التي تنضبط بها الدلائل فيها وعلاقتها بمستعمليها والمقاصد التي توجه التداول الخطابي بينهم ممارسة وتفاعلا[١٦]. ويقوم مشروعه في بناء التفكير التداولي العربي في ضوء علاقة التناسق والتكامل بين الحمولة التراثية الزاخرة وما تقدمه المنهجية الغربية في الفلسفة والمنطق على جملة من الأسس، لعل أهمها نقده

---

(١٦) طه عبد الرحمن، **اللسان والميزان أو التكوثر العقلي**، ط١، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، سنة ١٩٩٨، ص ٢٩-٣٠ وانظر أيضا، آمنة بلعلى، **المنطق التداولي عند طه عبدالرحمن وتطبيقاته**، مجلة اللغة والأدب، جامعة الجزائر، جانفي ٢٠٠٦، ص ٢٧٨.

للنظريات الغربية وفي مقدمتها مبدأ التعاون الحواري لـ: **بول غرايس**، فقد نعى عليه تركيزه على الجانب التبليغي دون التركيز على الجانب التعاملي المتصل بالاجتماع والأخلاق اللذين يؤطران القيمة التهذيبية في الكلام، والتي تتحكم بدورها في صناعة المعنى وتوجيهه في التخاطب اليومي(١٧).

## ٢- التصور التداولي الفلسفي، وعلاقته بتحليل الخطاب العربي

يعرض **طه عبد الرحمن** إلى مبدأ التأدب الذي يقوم على ثلاثة قواعد متضامنة فيما بينها بفضل تحقق مقاصد لإصلاح السلوك، المبنية بدورها على مبدأ التواجه، وهي: ١- قاعدة التعفف، ٢- قاعدة التشكك، ٣- قاعدة التودد، ٤- قاعدة التواجه. لقد حاول طه عبد الرحمن بأسلوب توليفي جذاب أن يجسد التواصل البناء والهادف بين التراث الإسلامي والتفكير الغربي الحديث، غير إنه لاحظ أن هذه القواعد المستخلصة من التراث الإسلامي مثل: قاعدة الصدق وقاعدة القصد، وقاعدة الإخلاص في ترابطها مع قاعدة التأدب والتواجه والتأدب الأقصى لا تشكل أدوات ضبط للخطاب الأدبي في الغالب، لذلك لجأ إلى آليات أخرى لتصنيف الخطابات في مستوى آخر من مستويات التخاطب مثلما تجلى ذلك في نظرية الحوار(١٨)، وتقوم الحوارية عنده على نوعين من الشروط، أولاها شروط(١٩) النص الاستدلالي من برهان وحجاج، وثانيها شروط التداول اللغوي مثل النطقية والاجتماعية والاعتقادية والإقناعية، مما يفسح

(١٧) المرجع نفسه، ص٢٥٣.

(١٨) آمنة بلعلى، **المنطق التداولي عند طه عبد الرحمن**، ص ٢٨٤.

(١٩) المرجع نفسه، ص ٤٣٦.

المجال نحو التمييز بين مراتب الحوارية الثلاث، وهي الحوار (العرضية) والمحاورة (الاعتراضية) والتحاور(التعارضية)[٢٠].

إن نظرية **طه عبدالرحمن** في المجال التداولي تتميز بالطابع التجريدي المونولوجي الذي يغطي خطابات عربية متنوعة في الماضي والحاضر، بل وتستشرف تفجير كثير من البنيات الفكرية المكبوتة في التراث العـربي بخاصة في المساجلات والمناظرات، مقترحا في هذا الإطار نزعة جديدة يصطلح عليها بالمعاقلة الحية بدلا عن العقلانية المجردة، وفي هذا السياق يحدد الفروق الأساسية بين العقل والمعاقلة فهي ليست جوهرا قائما بالنفس، وإنما فعالية تحصر بالتعاون بين أفـراد الجنس البشري تكون محصلتها العمل في ضـوء الاتفاق والاختلاف[٢١]. لقد أسفر تأسيس الشـروط التداولية للمناظرة في تركيز طه عبد الرحمن على الجانب التلفظي عن تغييب لعنصر الموجه الذي يتخذ بعدا سلطويا كما في مناظرة **متى بن يونس** و**أبي سعيد السيرافي مع الوزير ابن الفرات**، أو بعدا سرديا كما في حالة **أبي حيان** في المناظرة نفسها حيث يمكن الإفادة من نظرية المستويات السردية عند **ج. جنيت**، وبعدا نفعيا بالإضافة إلى ذلك[٢٢].

ممن تأثر به في المجال اللساني **أحمد المتوكل** الذي أفاد من التصور التداولي الغربي في تأسيس نظرية للنحو الوظيفي في اللغة العربية في سياق مراجعة الفكر اللساني الغربي، من خلال كتبه التي يتصدرها الوظائف التداولية في اللغة العربية سنة

---

(٢٠) طـه عبدالرحمن، **في أصول الحـوار وتجديد علم الكـلام**، ط٢، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، سنة ٢٠٠٠، ص ٢٨ و٤٢.

(٢١) طـه عبدالرحمن، **تجديد المنهج في تقويم التراث**، المركز الثقافي، ط٢، الدار البيضاء، بيروت، سنة ١٩٩٣، ص ٣٨.

(٢٢) وحيد بوعزيز، **التداولية في الخطاب العربي المعاصر**، ص ٢٣٦.

١٩٨٥، وهذه الدراسة بالرغـم من تنزلها في سياق نحـوي بما لا يمس مباشرة الحـقل الأدبي تسمح بلا شك بتكوين أفق جوهري في مقاربة النص الأدبي الذي مازال خطابنا النقدي غير قادر عن الإحاطة بجوانبه التداولية كمّا وكيفا.

### ٣- الاتجاه التداولي في لسانيات العربية

من أهم محاولات التعريف والتمثيل للاتجاه التداولي في اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة محاولة **محمد صلاح الدين الشريف** الموسومة بـ: تقديم عام للاتجاه البرغماتي ضمن دراسة أهم المدارس اللسانية التي صدرت سنة ١٩٨٦، والتي أشرف عليها **عبدالقادر المهيري**، والتي خصصت لتوضيح نشأة التداولية، وأهم قضاياها المفصلية في الفكر اللساني الحديث بصورة مختصرة ومركزة في الآن نفسه، موجهة خصيصا لطلاب الجامعات.

ولعلنا نتلمس تلك العناية بدراسة النص العربي من الناحية الشكلية والتداولية، ولو بشكل عابـر ومختصر فالح بن شبيب العجمي الذي عرض في دراسته الربط الذرعي في النص العربي إلى خاصية الربط التي تقوم عليها النصوص اللغوية معتمدة أدوات إحالية وإشارية لم تدرس في الثقافة النحوية العربية بالشكل الكافي – بحسب رأي الباحث – كما أن دراسة طرق الربط تستلزم استعراض أسس النص التداولية في علاقتها بسمة الترابط النصي(٢٣).

وفي سبيل إماطة اللثام عن هذا التصور يعرض البحث إلى مسيرة التفكير في النص ومتطلباته الترابطية عند القدماء من خلال التعريج على نظرية النظم، ثم وصف

(٢٣) فالح بن شبيب العجمي، **"الربط الذرعي في النص العـربي"**، مجـلة أبحاث اليرموك، سلسلة الآداب واللغويات، المجلد ١٢، عدد ١، سنة ١٩٩٤، ص٢٥٣

جامع لمحاولات المحدثين الغربيين النصوصية، والمهتمة بموضوعات مثل الإحالة، ومرجعية النـص وتكرارية المعاني وغيرها[٢٤]، والوقوف عند محاولات لسانية اتخذت من موضوع الربط الذرعي مشكلة بحثية، هذا ويشير الباحث إلى سبب اختياره لمصطلح الذرعية بدلا على البراغماتية قصد الابتعاد عن الظلال الاجتماعية لمصطلح البراغماتية[٢٥]، أما لبّ الموضوع فيمكن حصره في عرض ومناقشة الروابط الذرعية في اللغة، وهي نوعان: ١- روابط إحالية (Anafora)، و٢-روابط إشارية (Catafora)، أما النوع الأول فيمكن أن يستخدم بشكل متكرر متى أراد المتكلم ذلك بين لا يمكن استخدام أكثر من عنصر إشاري واحد قبل أن تذكر الوحدة المشار إليها في الرابط الإشاري[٢٦].

أما عـن أهـم التركيبات التي تظهر فيها الروابـط الإحالية في اللغة العربية فيمكن إجمالها - عند الباحث - في الموضعة (Topicqlisation)[٢٧]، والتبئير (Focusing)، والتركيـب الفـصلي (Cleft construction)، والتركيب شبه الفصلي ( Pseudo-Cleft Construction)[٢٨]، أما الربط الإشاري فيحدد الباحث تحققه في النص من خلال نماذج معينة مثل: أسلوب ضمير الشأن، وأسلوب إبراز الوصف الذرعي[٢٩].

---

(٢٤) المرجع نفسه، ص٢٥٤

(٢٥) المرجع نفسه، ص٢٥٥

(٢٦) المرجع نفسه، ص٢٦٥، كما ضم هذه الروابط الإحالية على نمطين شكليين مختلفين هما الترابط الأفقي التسلسلي والترابط المركزي، انظر تعريفها في البحث المذكور، ص ٢٥٦ – ٢٥٧.

(٢٧) يعتمد الباحث في تحديد مصطلح الموضعة وتمييزه مدخلا وظيفيا معروفا عند **سيمون ديك** و**أحمد المتوكل** في دراساته للمحور والبؤرة والذيل وغيرها، انظر **أحمد المتوكل**، الوظائف التداولية في اللغة العربية، الدار البيضاء، المغرب، دار الثقافة، ١٩٨٥، ص ١٣٧ - ١٣٨ وما بعدها.

(٢٨) فالح شبيب العجمي، **الربط الذرعي**، ص٢٦٣-٢٦٤.

(٢٩) المرجع نفسه، ص ٢٦٦.

كما يناقش الباحث الفـروق الكائنة بين جملة من المفـاهيم الذرعية المرتبطة بمستويات الربط عبر عرضها في ثنائيات، وهي (المسند إليه والمسند) و( الموضوع- الحديث)، و (المبأر الرتيب)، و(القديم - الجديد)(٣٠).

بالرغم من أهمية الموضوع المطروح بخاصة في الفترة التي نشر فيها هذا البحث إلا أن صاحبه عرضه بشكل وصفي مختصر، لم يستوف فيه جانبا مهما بالنظر إلى عنوانه، وهـو الجانب التطبيقي النصي، أما عن أهم الدراسات الحديثة التي حاولت عرض الإطار النظري لنظرية الحجاج في علاقتها بالتداوليات الحديثة وتحليل الخطاب فيما وقعت عليه يـد البحث أنموذجا لدراسات أخرى سلكت المسلك ذاته دراسة **عبدالسلام عشير**(٣١)، التي تأسست على محاولة عرض النظرية التداولية المعرفية في بعديها المنهجي والتطبيقي.

إن هذه النظرية المنفتحة على نظرية المعرفة ولسانيات الجيل الثالث (اللسانيات العرفانية) تهتم بجملة من القضايا التي دار حولها النقاش بين أنصار نظرية الفضاءات الذهنية بزعامة **فوكوني** ونظرية القالبية **لفودور**(٣٢)، وكلها أسئلة ترتبط بأصول التواصل، ومشكلات الفهم والتأويل المرتبطة به، ومسائل الاستقبال والتخزين والربط وغيرها في المستوى الذهني، كما تركز في المستوى المعرفي على المعطيات الداخلية في الذاكرة والخـارجية في ظروف التواصل العامة. وفي السياق ذاته تركز الدراسة عـلى مفهوم

---

(٣٠) المرجع نفسه، ص ٢٦٨.

(٣١) ركزنا على هذه الدراسة بوصفها مثالا يمكن أن يعبر عن كتابات أخرى تتنزل في الإطار ذاته.

(٣٢) المرجع السابق، ص٣١.

(٣٣) Sperber .D,Wilson La pertinence, communication et cognition ,Paris ,ed De Minuit,p200

التأويل التداولي في نظرية الإصابية (pertinence) التي تقوم على دراسة اختيار ما يأخذ باهتمام المتخاطبين، وما يؤثر فيهم من أقوال وحجج[٣٣].

إن الإصابية علاقة ترتبط بمجموعة من البراميترات السياقية والقولية المعرفية والمنطقية ذات وظيفة توجيهية للقول ضمن مجموع القيم الخارجية[٣٤]، وهكذا تتحول الإصابية إلى مبدأ ملازم للفعل التواصلي لا تنفك عنه. ولعل من أهم ما يرتبط بمسألة الفهم العلاقة الرابطة بين التأويل والسياق الذي يتكون من المعلومات المفهومية والمعلومات الفيزيقية المؤطرة للسياق والمتراكمة في الذاكرة[٣٥]، وهذه المعلومات الكثيرة والمتداخلة تطرح كيفية اختيارها واستثمارها بناء على متطلبات السياق، وهذا الوضع يقتضي تحقق مبدأ الملاءمة، أو ما اصطلح عليه بـ: الإصابية. فالتواصل الإنساني بين أفراد العالم الواحد، وحتى مع الكون بمكوناته الأخرى يفرض نظما تواصلية مختلفة تعتمد علامات مختلفة منها العلامات الشمية واللمسية والذوقية والبصرية ناهيك عن السمعية والتلفظية التي تتحول في التواصل إلى صور ذهنية قابلة للتخزين، ترمز للكائنات والوقائع والأحوال المختلفة.

إن التواصل البشري نظام رمزي بالدرجة الأولى مبني على قواعد تركيبية وعلاقات دلالية[٣٦]، وتحت هذا الإطار الموضوعي يمكن مناقشة القضايا التالية:

---

(٣٤) عبدالسلام عشير، **عندما نتواصل نغير، مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج**، ص ٣٤.

(٣٥) جدير بالذكر أن علماء النفس المعرفي يقسمون الذاكرة إلى ذاكرة قصيرة المدى وهي ذاكرة العمل الرئيسة وذاكرة بعيدة المدى تستحوذ عليها المعلومات المفهومية وذاكرة متوسطة المدى تتراكم فيها تأويلا الأقوال المباشرة.

(٣٦) المرجع نفسه، ص ٣٨

١ – مضمون التواصل، ٢ – المقاربة الترميزية والفهم الدلالي، ٣ – المقاربة الاستنتاجية[٣٧]، ٤ – التداوليات الاستنتاجية ومفهومي التضمين والسياق، ٥ – مفهوم المعرفة المشتركة في التداوليات المعرفية. وعلى صعيد تمعين العلاقة الرابطة بين التواصل والتحليل التداولي للخطاب تشتغل الدراسة على محاولة إبراز أهمية التحليل التداولي اللساني للخطاب في سياق وصف كرونولوجي لمسيرة البحث في نظريات الخطاب المتوسلة التحليل اللساني انطلاقا من أعمال أعلام الفلسفة التحليلية مثل: **أوستن وسيرل وغرايس**.

لقد دارت نظرية أفعال اللغة حول مدى تحقق الفعل بوضوح أو بصورة ضمنية لدى السامع في السياق التواصلي الذي يؤطر الفعل المنجز[٣٨]. يقول **أوستن**: **"لقد درست اللغة في ذاتها بكثير من العمق، وهي اليوم ينبغي أن تدرس من أجل حقيقة أخرى هي حقيقتنا نحن كأشخاص نتكلم"**[٣٩]. وفي هذا السياق يذكر **عبد السلام عشير** أن التداوليات هزت كثيرا من الوثوقيات والقناعات في التحليل اللساني الدلالي على اعتبار أن ممارسة اللغة إنجازا وإبداعا وأخلاقا هي قاعدة كل أنواع الإبداعات الكائنة والممكنة، لذلك اتجهت التداولية من خلال الذهن البشري إلى استكشاف عوالم الذات البشرية فيما يعرف اليوم بـ: معرفَة التداولية (cognitivation de la pragmatique)[٤٠].

---

(٣٧) يملك الذهن البشري آليتين للتواصل أولاهما الترميز وثانيهما الاستدلال أو الاستنتاج فيقوم التواصل أولا على استعمال السنن ثم يلجأ إلى الاستدلال لاستخراج الأحكام والبرهنة عليها. وفي هذا السياق يفترض التداوليون أن ما يتم إيصاله بواسطة الأقوال هو إرادة القول أما المضمون فيتم حل عقده ترميزيا وأما التضمينات فتستنتج.

(٣٨) المرجع نفسه، ص ٦١.

(٣٩) Quand dire c est fair, p12

(٤٠) Sperber .D,Wilson La pertinence, communication et cognition ,Paris ,ed De Minuit, p 63

لقد غدت التداولية في سعيها إلى سبر الذات معرفة عميقة تتغلغل في جوهر الكائن الإنساني في علاقته مع الأحداث والعالم واللغة التي تمثل أداة المعرفة والاتصال، بل راحت تطرح الأسئلة الثقافية المتصلة بالواقع والوجود الإنسانيين من خلال مدارستها لطبيعة العلاقة القائمة بين الشكل والدلالة والسياق، مع التمييز بين القدرتين الإنجازية والتأويلية، ومحاولة التعرف على سبل الوصول إلى مقاصد المتكلمين في ضوء ظروف التخاطب المتغيرة[٤١]. وفي سياق ذلك قامت نظرية أفعال الكلام لأوستن (١٩٧٠) التي صاغها في كتابه Quand dire c est faire.

أصبح لهذه النظرية صدى كبير في الدرس اللساني والفلسفي المعاصر، فتغيرت كثير من التصورات التي حصرت التحليل اللغوي في حدود الجملة ومكوناتها النحوية، فانفتح الدرس اللساني على دراسة الخطابات المختلفة بوصفها صورا لغوية تتجلى فيها عمليات التخاطب والتبليغ المختلفة شكلا وسياقا، وتبوء مفهوم الإنجاز مركز الرحى في هذه النظرية التي يتحول في إطار القول اللساني إلى فعل له تأثيره واقتضاؤه، يقول مارتن: ما يجب تعريفه في التداولية ليس إلا ما يشكل مرجعية لمجموع الأفعال، كما هو الشأن بالنسبة لمجموع الأقوال في النص أو الخطاب[٤٢].

إن تحليل الخطاب بعامة والخطاب الأدبي بخاصة لا يمكن أن يتوقف عند وصف بنية الكلمة أو الجملة، أو حتى إبراز دلالتها المركزية ودلالاتها الحافة في السياق اللغوي، بل لابد أن يتجاوز وصف نظام اللغة إلى وصف العلاقة بين هذه النظام والأبعاد التي يحتفي بها النص بوصفه عملا قوليا يؤشر لوقائع وأفعال لغوية لها أثرها الاجتماعي والنفسي والثقافي والديني والاقتصادي، فمغزى عبارة أو صورة أو مقطع

---

(٤١) Dictionnaire Encyclopedique de la pragmatique, p 499

(٤٢) عبد السلام عشير، **عندما نتواصل نغير**، ص ٦٦.

لا يتحدد بمكوناته المعجمية والتركيبية بقدر ما يتحدد بمراد القائل ومقاصده التي يفترض تأويلها من طرف المتلقي سامعا كان أو قارئا في ضوء رؤية مشتركة للعالم، وتبصر بأحوال اللغة في التواصل، هذه اللغة التي تقصد أكثر ما تعني، وتعني أكثر مما تقول على ألسنة المستخدمين، ولها ستكون نظرية اللغة نظرية في تأويل إنجاز الأفراد المنبثقة عن ملكات متعددة تندمج كلها في ملكة التبليغ اللساني.

### ٤- الدراسات الدائرة حول الحجاج والخطاب الحجاجي

لعل أهم موضوع شغلت به التداولية المعاصرة موضوع الحجاج[٤٣] من حيث آلياته ومفاهيمه وأهم نظرياته، وفي هذا السياق لابد من التنويه بجهود حلقة البحث التونسية التي أشـرف عليها حمادي صمود[٤٤]، التي أنجزت عملا مطبوعا مهما لهذا المجال يكاد يكون أهم عمل أكاديمي عربي جماعي أنجز في هذا المجال.

مما لا يخفى على المهتمين ذكره في هذا المقام أن الدرس البلاغي العربي القديم في مقاربته للنص الأدبي شعرا ونثرا قدم إسهامات مهمة يمكن أن تدرج في الموروث

---

(٤٣) يعد الحجاج فعلا طبيعيا من أفعال اللغة، ولكي يحصر مفهومه لا مناص من مقابلته مع الحجة والاستنتاج، فالحجاج ليس مرماه التطرق للكلام عن الأدلة، كما أنه ليس خطابا مهتما بالمبادئ المنطقية كعملية استنتاج، وبمعنى آخر أن تحاج لا يعني أن تبرهن على صحة فكرة ما، ولا أن تبين الطابع المنطقي الحصيف لعملية نظر، أن تحاجج يعني إعطاء أسباب وحقائق لنتيجة ما، انظر: Jacques Moeschler, argumentation et conversation ,element pour une analyse pragmatique du discours, serie ;langues et apprentissage des langues,1996, p 46.

(٤٤) فريق البحث في البلاغة والحجاج، **أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم**، منشورات كلية الآداب، منوبة، مجلد xxxix

التداولي الحجاجي، وقـد عضدته في لحظات تشكله وتطوره آراء المنـاطقة والأصوليين وعلماء الكـلام والمفسرين، ولعـل سلسلة دراسات محمد العمري بخاصة كتـابه: البـلاغة العربية أصولها وامتداداتها تكشف عن ذلك الجهد المنهجي الذي قدم من لدن تلك النخب، والذي يصلح مدونـة ثرة ينطلق منها لتطوير النظرية التداولية الحـديثة، ونظريات الحجاج المتفرعة عنها التي كان لفلاسفة اكسفورد بخاصة دور بارز في تطويرها.

كما شـارك **ستراوسن** و**كارناب** ثم **جـاك موشلار** في بلورة كثـير من قضايا الحجاج بخاصة فـي كتابه الصادر سنة ١٩٩٦ بعنوان النظرية التـداولية والتـداولية التخاطبية (Latheorie pragmatique et pragmatique conversationnelle).

هذا وقد أكد **موشلار** أن الحجاج لا يعد إطلاقا من طبيعة برهانية، أي لا علاقة له بالمنطق الصوري الأرسطوطاليسي الذي يبنى على مقدمتين صغرى وكبرى تفضيان بالضرورة إلى نتيجة وفـق مبدأ السببية، ويبدو أن قيام الحجاج حاصل بفضل علاقات يسيّرها الرفض والسجال، وفي هذا السياق وجه **موشلار** إلى وجود علاقة حجاجية بين (س) و (ع) حينما يكون أحـد الملفوظين س مقدما كي يقنع، فهـو يسوغ الآخر (ع) فـ (س) يعد الحجة، أما (ع) فهي النتيجة، ولن تكون العلاقة الحجاجية بالضرورة بين ملفوظين ظاهرين، إذ يبدو أحيانا أن النتائج تكون مضمرة، كما يمكن أن تكون بعض الحجج من طبيعة غـير لسانية، وفي حال كونها مضمرة لا بد أن تكون مقبولة ومستوعبة، كما أنّ وجود الحجج لصالح النتيجة يحتم توافرها عـلى توجيهات داخلية تخـدم نتيجة واحـدة فقط، أو توجيهات ضدية في حال تعدد النتائج وتناقضها[٤٥].

---

(٤٥) ibid ,p52-53، وانظر وحيد بوعزيز، **التداولية في الخطاب العربي المعاصر**، مفهوم المناظرة، الأسس والمساءلات، مجلة اللغة والأدب، جامعة الجزائر، عدد!٧، ص ٢٢٥

إن المتتبع لما صاغه **الجرجاني** في كتابيه دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة يمكنه إدراك البعد التداولي الرئيس للخطاب العربي بوصفه تمظهرا للغة العربية من خلال تكريس دور السياق وأثره في تمييز المعنى والمغزى والوقوف عند الغايات الحجاجية والاجتماعية والنفسية للمتخاطبين، ولنا مراجعة ما دون تحت موضوعات التقديم والتأخير بعامة وفي النفي بخاصة، والفصل والوصل والحذف والشرط والاستفهام لندرك مدى تفتيقه للمعنى الجديد، وتأويله للدلالة حين تخرج عن مقتضى الظاهر في ضوء العلاقة القائمة بين السياقين اللغوي والحالي.

غير أنه لم يأبه كثيرا على شاكلة نقاد وبلاغيي العصر القديم بالجوانب الافتراضية في إنشاء معاني الأقوال بناء على سياقات مفترضة أيضا جريا وراء المعنى الحقيقي الذي أطر بالبحث في الإعجاز القرآني وبسامع يعنى بقبول المعنى أو رفضه دون تأويل أو مساءلة[٤٦].

ولعل مسعى التداولية اللسانية لدراسة المفترض والمضمر من القول كان أساسا موجها إلى دراسة الروابط اللسانية ذات الوظيفة الحجاجية في علاقتها بالبنيات الاستدلالية الداخلية وبنيات الوقائع الخارجية مثل النموذج والشاهد والمثل والتمثيل، وهي أدوات حجاجية قمينة بأداء أدوار إقناعية أساسية في الخطاب متى ما وظفت توظيفا منطقيا وفق خطة استراتيجية مدروسة سلفا، كما عنيت التداولية الحجاجية بدراسة جدوى القياس الطبيعي في توليد الخطاب الطبيعي[٤٧].

أما القياس التداولي فيشكل ممارسة استدلالية استكشافية للمعرفة تنقل مستخدمي اللغة من حكم إلى آخر، مثل قياس المفرد على المفرد أو الحدث على الحدث،

---

(٤٦) المرجع نفسه، ص٨١.

(٤٧) المرجع نفسه، ص٩٤-٩٨.

وهكذا مما يعني حمل المتكلم للمخاطب على الإفادة من القياس إفادة سلوكية لاشتماله على عنصر القيمة الفكرية التي ترتبط بتغيير المحيط التداولي للفـرد عن طريق الإقناع بمضمون القول عملا به أو كفا عنه(٤٨).

يتميز الخطاب الحجاجي عن باقي الخطابات الأخرى بكونه خطابا مبنيا وموجها وهادفا ومبنيّا بناء استدلاليا يتم فيه اللجوء إلى الحجة والاستدلال والمنطق والعقل، وموجها مسبقا بظروف تداولية تدعو إليها إكراهات قولية أو اجتماعية أو ثقافية أو علمية أو سياسية تتطلب الدفاع عن الرأي أو الانتصار لفكرة، أو تتطلب نقاشا حجاجيا يلامس الحياة الاجتماعية أو المؤسساتية، بهدف تعديل فكرة أو نقد أطروحة أو جلب اعتقاد أو دفع انتقاد(٤٩)، وللحجاج أبعاد تداولية رئيسة لعل أهمها البعد السياقي والبعد الشمولي التفاعلي والبعد التعاملي الأخلاقي والبعد التوسعي في أفعال اللغة والبعد التنظيمي الاستراتيجي(٥٠).

أما سائر الآليات المساهمة في بناء الحجاج فهي الآليات المعرفية الممثلة بالاستدلال والفرضيات والآليات المجازية التي تقوم على التمثيل أو التخييل كالاستعارة(٥١) التي تعد من أبرز آليات الحجاج اللغوي في صورته البيانية والجمالية بخاصة في الشعر، وإذا

---

(٤٨) مجلة المناظرة، عدد ٤\٨٩.

(٤٩) عبدالسلام عشير، **عندما نتواصل نغير**، ص ١٢٨ وانظر طه عبدالرحمن، **اللسان والميزان**، ص٢٢٦، وانظر Essais sur l argumentation, p146.

(٥٠) المرجع نفسه، ص ١٠٤.

(٥١) المرجع نفسه، ص ١١٥ وفي هذا الصدد يعرض الباحث إلى أهم التصورات النظرية التي قدمت في موضوع الاستعارة قديما وحديثا مركزا على موقعها في النظرية الدلالية لسيرل وإيكو وكذا في النظرية التصورية لـ: لايكوف.

كانت الاستعارة الشعرية تتملك السامع أكثر مما ترغمه، فإن الاستعارة الحجاجية تكون أكثر قهرا واقتسارا(٥٢)، وفي هذا السياق تؤدي الآليات المجازية سلسلة من الوظائف بعضها متعلق بالمتكلم وبعضها الآخر متعلق بالسامع كوظيفة تحريك الخيال ووظيفة تزيين القول وتكثيفه(٥٣).

كما خصصت الدراسة الفصل الثالث لمدارسة إستراتيجية الخطاب الحجاجي في ضوء إمكانات التحقق وإشكالات التأويل عبر تحديد طبيعته الاستدلالية التي تجعل منه حوارا ثنائيا أو متعدد الأطراف غايته تبسيط الأفكار، وعرضها وتأكيدها أو نفيها من خلال عملية لسانية ذهنية تهدف إلى إرضاء العقل من جهة وإرضاء الآخر من جهة ثانية مما يعني ضرورة بناء خطة هادفة تراعي مقتضيات السياق الاجتماعي والسياسي والثقافي الذي يحدد فضاء الحجاج(٥٤).

تقوم هذه الخطة على مراعاة خصائص عامة تحدد شكل الخطاب الحجاجي، يمكن إجمالها في: ١- خاصية البناء والدينامية، ٢- خاصية التفاعل، ٣- خاصية الالتباس، ٤- خاصية التأويل، ٥- خاصية الاعتقاد، ٦- خاصية الانتهاض إلى العمل(٥٥)، كما تستطرد الدراسة في فحص أطر وطرائق الاستدلال الحجاجي التي تعطي الخطاب الحجاجي شكله النهائي في السياق التواصلي المعين، من خلال منظومة من التقنيات التي يتصدرها التعريف الحجاجي الذي يشكل مدخلا للحجاج فحاجته

(٥٢) المرجع نفسه، ص ٨١.

(٥٣) المرجع نفسه، ص ١٢٣.

(٥٤) المرجع نفسه، ص ١٢٨.

(٥٥) المرجع نفسه، ص١٣٤ وانظر طه عبد الرحمن، **اللسان والميزان**، ص ٢٣٧.

قائمة في حال تحديد مفهوم يكون أرضية مشتركة للمتخاطبين[٥٦]، أما الأشكال المجازية للتعريف فقد لخصها الدارسون في: ١- التعريف الموجه، ٢- التعريف المكثف والشعار، ٣- التعريف بالمقارنة والمخالفة[٥٧].

للحجاج أشكال مختلفة تبعا لتنوع الحجج المعتمدة في الإقناع، وهي التي ترهن بناءه السليم، ليحقق أغراضه التداولية، ولعل أهم أنواع الحجاج ما كان مغالطيا (Paralogisme)، ويقوم الحجاج المغالطي إحداث اللبس في الألفاظ والمقدمات ليضطرب فهم المحاور مثل المصادرة على المطلوب والأسئلة المتعددة، وسحب صفة الكل على الأجزاء، كما يمكن الحديث عن أنواع أخرى للحجاج مثل الحجاج الإشكال والحجاج الذي ينطلق من الشخص ذاته، ويبدو أن تنوع أشكال الحجاج راجعة أيضا إلى تنوع الحجج ذاتها[٥٨].

في هذا الإطار ميز الدارسون بين ما هو موضوعي وما هو ذاتي وبين ما هو صائب وما هو خاطئ تبعا للسياق والموضوع الذي تظهر فيه، مثل الحجاج بالسلطة والحجاج بالتجهيل والمغالطة المعرفية والحجاج بالقوة، والمحاجة الجماهيرية والمحاجة الانفعالية والحجاج بالمصادرة عن المطلوب[٥٩].

كما تتوسل دراسة **عبد السلام عشير** بحث طرائق وتقنيات الخطاب السياسي بوصفه أهم مظهر خطابي تعلو فيه القيمة الحجاجية للغة من خلال تحقيق نوع من

---

(٥٦) المرجع نفسه، ص١٤٢، هذا وتتفرع صور التعريف الحجاجي إلى أشكال مختلفة تقوم بأدوار فرعية متباينة في بناء الحجاج من ذلك التعريف بالمفهوم والماصدق، والتعريف التفسيري والتعريف بالوصف والتعريف الإجرائي، انظر ص ١٤٣و ١٤٤.

(٥٧) المرجع نفسه، ص ١٥٠.

(٥٨) المرجع نفسه، ص ١٧٠.

(٥٩) المرجع نفسه، ص١٥٠.

التكامل بين الطرائق الحجاجية الذاتية والطرائق الموضوعية العقلانية التي تقوم على المزاوجة بين إثباتين لا يتواجدان في النسق ذاته دون أن ينفي الواحد منهما الآخر منطقيا(٦٠).

هذا ويمكن حصر هذه الحالة في عمليتين عقليتين هما: الثالث المرفوع(٦١) والاختيار الصعب، كما لا يغفل الحجاج السياسي منظومة أخرى من الطرائق المهمة مثل الطرائق المنطقية التي يتصدرها التقابل والتعاكس والتباين والطرائق الرياضية التي تقوم على اللاانفصال والتبادل، أما الطرائق الواقعية فتقوم على التجارب والحدوس والمفارقات الواقعية لون من أهم ألوان هذا المنحى الحجاجي التي يطمح واضعها إلى حمل المتلقي على استكناهها انطلاقا من تجارب ووقائع معينة(٦٢).

لعل من أهم النظريات التي عنيت بدراسة الحجاج في صلب المحاورات نظرية المساءلة التي أرسى دعاماتها **مايير** أحد منظري البلاغة المعاصرة من خلال كتابيه المهمين اللذين أحدثا نقلة منهجية في الدرس البلاغي المعاصر، وهما: أسئلة البلاغة وأسئلة البلاغة المنطقية، اللغة والحجاج، وتقوم نظريته على مبدأين هما: المبدأ الافتراضي في تحليل الأقوال، ومبدأ الاختلاف الإشكالي داخل الأقوال(٦٣).

---

(٦٠) المرجع نفسه، ص١٨١.

(٦١) يعني هذا المبدأ من الضروري أن يكون للشيء صفة ما أو نقضها، كأن تقول مثلا أن التلميذ قد نجح في الامتحان، او رسب، وليست هناك حالة ثالثة لأن الحالة الثالثة مرفوعة بالاختيار (النجاح أو السقوط) وهذا المبدأ هناك من يسميه بالوسط الممتنع أو الوسط المستبعد، ينظر محمد أنعيسي، **الحوار المتمدن**، عدد ١٨٢٩، ٢٠٠٧ / ٢/ ١٧.

(٦٢) المرجع نفسه، ص ١٩٠.

(٦٣) المرجع نفسه، ص ١٩٦.

أما أهم أطروحة صدرت عنها هذه النظرية فقائمة على علاقة النتيجة بالسبب، فأن نفكر، وأن نتحدث وأن نقول شيئا ما، وأن نكتب فذلك يعني أن نطرح سؤالا[٦٤]، في سياق التواصل اللساني الذي يشكل الإمكانات القولية المختلفة التي تسمح للمتخاطبين أن يستنتجوا ويستدلوا، ويحاجوا أو يقنعوا، إنه الوسيلة التي تكشف عن مكمن السؤال فيما يقال دون أن يقال مباشرة[٦٥]، كما تنطوي نظرية المساءلة على جملة من الإشكاليات المتعلقة بطبيعة العلاقة الرابطة بين البلاغة والحجاج، ووظيفته فيها في صلب السؤال والجواب، وارتباط فعل المساءلة بفعل الانعكاس في ضوء أفعال الكلام، فالأقوال التي ترد في صيغتي الأمر والنهي توجد إشكالا تواصليا بين المتكلمين من خلال ما تجره من انعكاسية بالنسبة إلى المستمع، فالقول الانعكاسي نتيجة لجواب يفترض رد فعل، وليس وسيلة مباشرة للطلب أو السؤال، مثل تلك الإجابات الإشكالية التي تترجم ما هو تساؤلي[٦٦].

وعلى صعيد البعد السياقي يشير **مايير** إلى صفة التداخل الحاصلة بين القول والسياق مما يجعل من هذا الأخير سياقا قوليا بامتياز لا ينفك عنه ألبتة، كما يميز بين أنواع من الحوار فهناك الواضح والإشكالي والصامت، كما يطرح التحاور والمساءلة إشكالية المسافة الحجاجية التي تتحكم في بنية المفاوضة بوصفها ضابطا مهما في بنية القول الحجاجي، إذ إن الإشكال الحقيقي في الحجاج حول المسافة يكمن في تأكيد الهوية أو العثور عليها، مما يدفع بالمتحاورين إلى تقديم إمكانات الرفض والقبول.

---

(٦٤) المرجع نفسه، ص ١٩٧.

(٦٥) المرجع نفسه، ص ١٩٨.

(٦٦) المرجع نفسه، ص ١٩٩.

وعلى صعيد بحث العلاقات الحجاجية يؤكد **مايير** طبيعة العلاقة الثنائية للحجاج بين المتكلم والمستمع انطلاقا من طرح الأسئلة ومتابعة تقديم إجابات لها، قصد تقريب وجهات النظر، وتحقيق مبدأ الإقرار بالجواب أو السير بالعملية نحو تضخيم الخلاف، ودحض الجواب عبر ممكنات اللغة بعامة، وجانبها المجازي بخاصة[٦٧]، في ضوء ما تتيحه اللغة الحجاجية من مفارقات تميز الصريح والضمني من القول، ولعل ما يمكن استنتاجه في سياق عرض أركان نظرية المساءلة أن صاحبها أقامها على مفاهيم متعارضة، منها: الحقيقة والمجاز، والافتراض واليقين، والاستعمال والابتكار، والإقناع والتمويه، السلطة المجازية والسلطة المادية[٦٨].

ولا يخفي الباحث دعوته الصريحة النابعة من اعتقاد راسخ بأهمية ممارسة نقد الفكر، وتربية الأجيال على فن الاستدلال والإقناع، ولا يكون ذلك إلا بتدريس الاستدلال وطرائقه في ميدان العلوم الإنسانية والاجتماعية حتى تقوم الجامعة بمهمتها الريادية في التغيير الاجتماعي والحراك العلمي والثقافي، إذ إن فتح حوار عقلاني جاد وموضوعي بين مختلف المؤسسات سيضيق لا محالة من جغرافيا التشنج والسفسطة بكل أشكالها وتمظهراتها المعنوية والمادية، وسيفتح المجال نحو ثقافة التوافق والابتكار.

وفي سياق تمهيدي مشابه يمكن تنزيل دراسات محمد العبد حول التداوليات والحجاج ضمن علم تحليل الخطاب، والتي من بينها "تعديل القوة الإنجازية، دراسة في التحليل التداولي للخطاب"، وقد عرض فيها لنشأة مختصرة للفكر التداولي الحديث، في ضوء أهم نظرية تمثله في اللسانيات، وهي نظرية الفعل اللغوي، مبينا علاقة التداولية

(٦٧) المرجع نفسه، ص ٢٠٦.

(٦٨) المرجع نفسه، ص ٢٠٨.

بالعلوم الإنسانية ومناهج النقد الغربي مثل السيميائية التي طوّرت كثيرا من مقولاتها بخاصة في المسرح والدراما.

كما يعرض لتلك الإضافات المهمة للنظرية على يد **ديتر فوندرليش** و**فان ديك** في كتابه النص والسياق، و**ميخائيل ستوبس** الذي عني بدراسة الأفعال التعاونية في مجال خطاب المحادثة[٦٩]، أما نقطة الارتكاز في هذه الدراسة فهي القوة الإنجازية للفعل في ضوء ارتباطها بالمقصد والسياق، والحقيقة إن عناية هذه الدراسة بتحليل مفهوم القوة الإنجازية لا يقف عند حدود التعريف بل يتعداه إلى محاولة تطبيقها على اللغة العربية، ويتجلى هذا الهدف فيما أفصح عنه **محمد العبد** من أمل في أن تكون هذه الدراسة – من منطلق الاقتناع بأن كل تطور في النظرية اللسانية يؤدي بالضرورة إلى تطور في النظرية الأدبية مساو له في القوة والاتجاه – أن تكون فاتحة اتصال بتداولية أفعال الكلام، وتطبيقها على اللغة العربية من خلال أحد مفاهيمها المركزية الفاعلة في حقل تحليل الخطاب، وهو مفهوم القوة الإنجازية الذي أراه جديرا بأن تفتح له دراستنا اللسانية والأدبية أبواب الاهتمام والرعاية[٧٠].

يقوم مفهوم **القوة الإنجازية** على اختلاف أثر الأفعال المنجزة بالقول في السياقات المختلفة، وتبعا لطريقة تلقي المستمع لها في الخطاب إذ يمكن للدارس وصفها وتأويلها، أما مقاصد المتكلمين فتند عن الفحص العلمي بينما تفسير المستمع فواضح من خلال استجابته[٧١].

---

(٦٩) محمد العبد، **تعديل القوة الإنجازية**، ص ١٣٦ وانظر Stubbs, Michael,discourse analysis,the sociolinguistic analysis of natura l language,Basil Blackwell,Oxford1989, p 149.

(٧٠) المرجع نفسه، ص ١٣٦.

(٧١) محمد العبد، **تعديل القوة الإنجازية**، ص ١٣٩.

ويقود الحديث عن هذا التفاوت في قوة الفعل اللغوي في سياق تمييز الأفعال المباشرة عن غـير المباشرة إلى تحديد علامات القـوة التي ذكر منها **أوستن**: الصيغة ونغمة الصوت وأشباه الجمل التي يقصد بها تكييف قوة المنطوق مثل تكييف قوة سوف أفعل بإضافة من المحتمل أو تكييف قوة النهي بالظرف لا تنس أبدا وأدوات الربط مثل من أجل ذلك التي تستخدم في قوة استنتج. وبالرغم من تلك التي تستخدم في قوة أسلم بأن، ومصاحبة المنطوق لحركة جسمية دالة وملابسات المنطوق التي تساعد عـلى تحديد الغرض، فقد يكون الأمر أمرا أو إذنا أو عرضا أو التماسا أو توسلا أو اقتراحا أو توصية أو تحذيرا(٧٢).

كما يضاف إلى تلك العلامات اللسانية أعراف الاستعمال الضمنية والاستلزامات الحوارية التي صاغها **غرايس** في آداب الحديث(٧٣)، كما تنصرف الدراسة في شطر مهم منها إلى دراسة كيفيات وأدوات تعديل القوة الإنجازية في الملفوظات، ذلك أن المتكلمين يعمدون إلى تكييف منطوقاتهم، وبالتالي تغيير درجة أفعال القول الأدائية بناء على خطط معينة، يصطلح عليها التداوليون باستراتيجيات التعديل، التي من بينها استراتيجية تلطيف الخطاب التي عرضها فريزر، والتي تعني إضعاف وتخفيف قوة الفعل المنجز في القول الذي تبدو تأثيراته غير مرحب بها عند المستمع، أما استراتيجية زيادة قوة المنطوق وتعزيزها فهي استراتيجية مضادة عرضتها **جانيت هولمز** سنة

---

(٧٢) المرجع نفسه، ص ١٤١، وانظر محمد العبد، **نظرية الحدث اللغوي**، مجلة الدراسات اللغوية، مجلد ٢، عدد ٤، سنة ١٤٢١-٢٠٠١، ص ١١-٥٢-٣٢.

(٧٣) محمد العبد، **العبارة والإشارة، دراسة في نظرية الاتصال**، دار الفكر العربي، ط١، سنة ١٩٩٥، ص ٨١ و٨٢.

١٩٨٤[٧٤]، كما تبين الدراسة أسباب التعديل بالقوة أو التضعيف، باسطة القول في وسائل ذلك، سواء الوسائل اللسانية، مثل وسائل التشكيل الصوتي والوسائل المعجمية، أو غير اللسانية الخطابية الخارجة عن نطاق اللغة مثل تعيين الفعل الأدائي والعلامات الرابطة ووسائل ما وراء الخطاب والتكرار[٧٥].

وبوجه عام يمكن القول إن مفهوم تعديل القوة الإنجازية قادر على كشف العلاقة الرابطة بين الفعل الإنجازي وسياقاته الاجتماعية، كما أن وصف القوة وصفا دلاليا، مع تعيين درجاته المتفاوتة وتحديد استراتيجياته، والآثار الأسلوبية المترتبة على ذلك التكييف من المداخل اللسانية الضرورية لتحليل الخطاب الأدبي بخاصة، وسائر أنواع الخطاب الأخرى ضمن السياق التي تنتج فيه أو تحيل عليه[٧٦].

لقد كشفت التداولية طموحها غير المحدود لولوج مناطق النص الأدبي المحصنة بسياج الدلالة الضمنية القائمة على فنون المجاز المختلفة، كما حملت دعوة صريحة وجريئة بضرورة إعادة النظر في الآلة النقدية الواصفة التي يتأسس عليها خطابنا النقدي الراهن في أغلب المناسبات، ولعلنا نستشهد على هذا الطموح بما أعلنته دراسة **سامية الدريدي** الموسومة بـ: **"الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة، بنيته وأساليبه"** فقد اتخذت أنموذجا لذلك الصنف من البحوث الأكاديمية التطبيقية التي استغلت المعطيات المعرفية والمنهجية التداولية في نظريات الحجاج لتحليل النص الشعري الجاهلي، قصد ربطه بالخطابة باعتبارها المدونة الأساسة

---

(٧٤) محمد العبد، **تعديل القوة الإنجازية**، ص ١٤٤ وانظر في هذا الصدد Fraser Bruce; Conversational Mitigation,in Jornal of Pragmatics 4-1980, pp 341-350, p 342.

(٧٥) محمد العبد، **تعديل القوة الإنجازية**، ص ١٤٨ وما بعدها إلى ص ١٥٨.

(٧٦) المرجع نفسه، ص ١٥٨.

للفعل الحجاجي[٧٧]، ولعل هذه الدراسة ومثيلاتها تحاول الانطلاق من الطبيعة غير المباشرة للخطاب الأدبي الذي يتولد عند امتصاص خطاب آخر، ثم تحويل أزمنته الفعلية، وتعديل ضمائره وإشاراته، بل والتقليل من درجة الموضوعية فيه بفعل اعتماد لغة المتحدث وصياغته الخاصة، فالمعتاد في الأدب - كما يقول التداوليون - استخدام تغيير الشفرة لتقديم الشخصيات، وإبراز خواصها عن طريق إدخال صوت مغاير لصوت فاعل الخطاب الذي يحتفظ بلغة متجانسة وخاصة له[٧٨].

أما موضوع هذه الدراسة كما يظهر على لسان صاحبته النظر في مجموع التقنيات التي يعتمدها الشاعر ليحتج لرأي أو ليدحض فكرة محاولا إقناع القارئ بما يبسطه أو حمله على الإذعان لما يعرضه، وهو أمر سيقودنا حتما إلى دراسة بنية الحجاج من ناحية وأساليبه من ناحية ثانية، ولعل من أهم الأسئلة التي تطرح في هذا السياق: ما الذي يحدث للشعر حين يرود مناطق الحجاج؟ هل يتحول إلى خطابة كما رأى بعض القدماء أم يرتاد عوالم جديدة تكسبه ألقا وطرافة؟ هل تقودنا دراسة الحجاج في الشعر القديم إلى مراجعة بعض الآراء النقدية القديمة التي أضحت بحكم تواترها وعظيم انتشارها مسلمات لا يلتفت الباحث إلى دراستها؟ أم هي دراسات ستثبت وتدعم عددا غير قليل من هذه الآراء والمسلمات؟[٧٩].

---

(٧٧) سامية الدريدي، **الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة، بنيته وأسلوبه**، عالم الكتب الحديث، وجدارا للكتاب العالمي، ط١، سنة ٢٠٠٨.

(٧٨) صلاح فضل، **بلاغة الخطاب وعلم النص**، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٢، ص ١٠٢ و١٠٥.

(٧٩) المرجع نفسه، ص ٢، جدير بالذكر أن هذا البحث امتداد لمسيرة عمل جامعي قدمته الباحثة في كلية الآداب بمنوبة سنة ١٩٩٢، حول شعر الخوارج مضامينه النضالية وخصائصه الفنية تحت

وعن مبررات اختيار المدونة تقرر الباحثة اختيارها للشعر الغنائي نظرا لحضور الشعرية فيه قيمة ثابتة عبر اللفظ والصورة والإيقاع من ناحية، أما السبب الثاني فإن دراسة الحجاج، بل فيما يفترض قيامه على الاقتناع والاستدلال لا يبدو مهما ومثيرا فآفاقه محدودة، ونتائجه معروفة سلفا أو على الأقل منتظرة، إذ تبين بالتحليل الوصول إلى البنية الحجاجية ذاتها لنصوص الشعر السياسي[٨٠].

إن دراسة الحجاج في الشعر الغنائي وفق هذا التصور المنهجي وعبر هذه الأسئلة سيفتح الباب واسعا إلى فضاءات نصية متنوعة لم ترتدها التداوليات بعامة ونظريات الحجاج بخاصة، أما عن أهم مفاصل الدراسة فقد اتخذت منحيين أحدهما يندرج في السياق التعريفي والتبسيطي للمفاهيم والأطر الحجاجية، مثل تعريف روافد الإقناع والحجاج ووسائل الإثارة التي تتيحها اللغة والبلاغة والموسيقى، بالإضافة إلى ضبط معالم الحجاج وبنيته من خلال عرض أنواع الحجج شبه المنطقية التي تعتمد البنى المنطقية والعلاقات الرياضية، ناهيك عن سائر الحجج المؤسسة على بنية الواقع والمؤسسة لبنية الواقع، والحجج المستدعية للقيم والمشترك.

كما شمل هذا المنحى إبراز أهم العلاقات الحجاجية في الشعر مثل علاقة التتابع والعلاقة السببية وعلاقة الاقتضاء والاستنتاج وعلاقة عدم الاتفاق، أما المنحى المتغير في الدراسة فذلك الذي اتجه نحو تحليل النص وفق إجراءات اللسانيات والأسلوبيات والبلاغة الحديثة مختارا شبكة من النصوص الممتدة عبر ثلاثة قرون

---

رقم T٧١٩، ثم دراسة أخرى بعنوان **الحجاج في هاشميات الكميت**، نشر في حوليات الجامعة التونسية، العدد٤٠، سنة ١٩٩٦.

(٨٠) المرجع نفسه، ص ٧.

تمثلها بائية **علقمة الفحل** وميمية تميم بن مقبل ونونية **كعب بن مالك** ولامية **جرير** وعينية **عمر بن أبي ربيعة** وعينية **مروان بن أبي حفصة**[٨١].

لعل من أهم ما توصلت إليه الدراسة مما يغني في بلورة التفكير الحجاجي في نظريتي النقد ولسانيات العربية في زعمنا من الناحية المنهجية ثراء بنية الحجاج في الشعر القديم من حيث كثرة الحجج وتنوعها، ربما تكون حجة التعدية من أكثر الحجج حضورا، إذ تجد الشاعر في سياق حرصه على التأثير في محبوبته، بإظهاره لحبها ادعاؤه حب كل مكان تحل به، وكل أرض تتخذها وطنا بل يحب لحبها الأعداء، ويكره لكرهها الأصحاب والخلان[٨٢].

كما ينفتح الحجاج في الشعر على أكثر من متلق، إذ يحاجّ الشاعر المحبوبة والذات واللائمين على صعيد واحد، دون أن تقف العوارض الشكلية والإيقاعية للخطاب أمام قدرته الحجاجية، فحجاجه سلو وتصبر للذات ووصل للمحبوبة واعتراض على اللائمين والعذال في الوقت ذاته، هذا وقد كشف التحليل التداولي لبنية الحجاج عن هزال المقولة النقدية الكلاسيكية التي تنفي الترابط والتماسك عن الشعر القديم في سياق امتياز الشعر الحديث بالوحدتين الموضوعية والعضوية، إذ تلوح النصوص لقارئها بنية واحدة تنجز في التواصل فعلا كلاميا كليا، تتفرع قوته الإنجازية في فضاء القول عبر سلسلة متماسكة من أفعال اللغة كالتهديد والتحذير والحث والعرض والطلب والشرط والإخبار والدعاء والاستفهام وغيرها.

---

(٨١) المرجع نفسه، المقدمة، ص د.

(٨٢) المرجع نفسه، ص٤٣٤.

لقد انتهت الدراسة إلى التمييز بين بنى أربع حكمت القصيدة القديمة هي البنية الاتّساعية والتصاعدية والمتدنية والقصصية الهرمية[٨٣]. ففي حالة البنية الاتّساعية تكون النتيجة واحدة بغض النظر عن توتر الحجج وتعددها، أما إذا اتخذت البنية شكلا تصاعديا أو متدنيا فإن النتائج ستكون تراتبية لتنتهي في الأخير إلى النتيجة الرئيسة، بينما تنفتح البنية القصصية على نتائج مختلفة مبنية على حجج متنوعة ومختلفة أيضا. ويمتاز الحجاج الشعري بعمله بشكل خفي وضمني في مسعى اقتحام مناطق المتلقي الشعورية والفكرية، وكذلك العلاقات الحجاجي فهي ظاهرة أحيانا خفية في أغلب الأحيان لأن الشاعر قلما يعتمد الروابط الحجاجية بل يربط الحجج بالنتائج فيما بينها، وكذلك الحجج ربطها خفي نظرا لطبيعة البنية الشعرية، كما كشفت هذه الدراسة عن تحول الحجاج الشعري إلى نوع من التحريض الملتبس بالإيهام والمغالطة، لصلته بالبلاغة[٨٤].

إن التداولية المنبثقة من الفكر الفلسفي في اللغة سرعان ما تجاوزت إطارها المعرفي والمنهجي الذي تأسست ضمنه، فعملت عبر انفتاح نسقها الفكري على العلوم والنظريات المختلفة على توسيع أفقها التحليلي، صاقلة أدواتها الوصفية والتأويلية، وبنظرتها للإنسان في صورته الأنثروبولوجية، وبوصفه كائنا قادرا ومريدا، فتحت آفاقا واسعة في ميادين عدة، لعل أهمها الأدب فقد غدت في عصرنا أداة منهجية مهمة لاستقصاء المعنى، وفهم علاقة الدلالة اللغوية بمقاصد المبدع، وتأويلات المتلقي في السياق التواصلي، وتحت ظلالها تلاشت حدود الأجناس الإبداعية الأدبية وغيرها، فلم يعد تأويل المعنى محصورا على الشعر وفنون النثر بل تعداه إلى أشكال تواصلية جديدة أفصحت عنها العولمة.

---

(٨٣) المرجع نفسه، ص٤٣٦.

(٨٤) المرجع نفسه، ص٤٤١.

ولا أدل على هـذا التوسع من أن توجهاتها في دراسة الحجاج والافتراضات المسبقة ومضمرات القول أضحت تسخر لتحليل الاتجاهات السياسية الكبرى للدول، وفي المجال الاقتصادي أضحى ممكنا الحديث عن إدماج الفرد بوصفه الضامن الرئيس للمردود الإنتاجي في المؤسسة بفعل الإطار النفعي الذي تقوم عليه الفلسفة العامة للتداوليات الحديثة، لكن يظل السؤال مطروحا: أين هو موقع التفكير العربي من هذا النسق المعـرفي والمنهجي بشكل عـام؟ هل هناك استعداد لخوض غمار تجربة قـراءة النصوص، في ضوء تفاعلات الواقع المعيش؟، وما هي حدود قدرتنا النقدية واللسانية والفلسفية على استيعاب هذه الرؤى، وتجذيرها في منجزنا اللغوي بعامة؟

لقد عرض هذا المحور بشكل عام إلى تلك الرابطة القوية ذات الصفة النظرية، والتي ربطت التداوليات بوصفها رؤية ومقاربة ومنهجا تحليليا بالحجاج بوصفه بنية وملفوظا وعملا لغويا، ولبسط حدود العلاقة، وتبيينها لا بد من تخصيص فسحة من القول لعرض نظرية الحجاج كما تبدو في كتب الأوائل ودراسات المتأخرين،[٨٥] تمهيدا لاستثمار بعض مقولاتها في تحليل الخطاب العربي.

(٨٥) نعتذر للقارئ على الإطناب أحيانا، فهدفنا في هذا المساق توجيه المسائل من جميع الجهات التي تنير طريق القارئ المبتدئ.